التعليم بين الماضي والحاضر

باسم الحاج سعدي

في بداية حياتي أحببت التعليم، وتبلورت أفكاري الأولى حوله خلال وجودي في الأردن، حيث درست في أربع مدارس مختلفة فيها، وكان حالها لا يختلف عن فلسطين، بل يكاد يكون أسوأ ... . كنت صغيراً حينها أتأمل وأنقد حال المعلمين في يأسهم وصعوبة حياتهم، وعدم قدرتهم على التعامل مع تلاميذهم بسلاسة، فقد كانت لغة العصا تحك أجساد الطلاب ليفهموا الدرس، أو يحترموا قوانين المدرسة، ويحققوا نتائج أفضل، ولكن المحصلة النهائية كانت تعباً جسدياً وعقلياً للمعلمين، وضعفاً علمياً وبدنياً لدى الطلاب.

عدت مع أسرتي إلى فلسطين، وكنا نعيش في قرية صغيرة، تحيطها 4 قرى، وكان والدي قد عمل سابقاً معلماً في بعضها، وهنا بدأت القصة ... وجدت الاحترام غير المتناهي للمعلم القديم، وتقدير الكبار والصغار له، حتى لو كنت قد علمته قبل أعوام بعيدة، وبدأت فكرة أن أصبح معلماً تتبلور في ذهني ... مهنة جميلة مريحة، تبقيك فوق احترام الجميع، وتجعلك مبدعاً وصانعاً للعقول النيرة التي قد تصنع التاريخ يوماً ما. كنت أحب الخروج مع والدي لأنظر كيف يتعامل الناس معه، وكيف يحترمونه ويستضيفونه رغماً عنه ليعبروا له عن احترامهم وتقديرهم كونه معلماً قديماً كان ولا يزال يخرّج الأجيال، وقد عاد إلى بلاده ليمارس مهنة التعليم بعد انقطاعه عنها خمسة عشر عاماً، وهنا بدأت المقارنات بين ما كانت عليه حال المدارس، وما آلت إليه اليوم.

رجل كبير السن يدخل صفه، تبقى هيبته وقيمته من دون المعلمين محفوظة بين طلابه، وأنا قاربت على دخول الجامعة، أتطلع لأصبح مثله، أخرّج الأجيال جيلاً بعد جيل، وفي طريقي أنظر إلى المساوئ والسلبيات التي يقع فيها معلمونا، وأقول في نفسي لن أقع في هذا الخطأ، ولن أفعل مثل هذا، وسوف أقوم بفعل هذا ... .

وفي الوقت نفسه باشرت في اختيار تخصصي وشهادتي التي أحصل عليها اليوم، لأني كنت أحب الطبيعة وأتأملها كل يوم، وما ساعدني أني أسكن في الريف، حيث الخضرة، ونقاء الهواء، والمساحات التي بالإمكان أن أبقى أعواماً أتأملها دون كلل أو ملل.

اخترت الجغرافيا كتخصص أحبه جداً، وكنت أسأل المعلمين القدماء عنه دائماً، وكيف يمكن أن أصل إلى مثل هذا التخصص، ودخلت الجامعة، وتخرجت وأنا أنتقد هذا المعلم وذاك، أو سأصبح مثل هذا المعلم، وأبحث عن وسائل وأساليب جديدة للتعليم أحملها في جعبتي لأقدمها إلى طلابي في المستقبل، ومن هنا بدأت الصدمة ... في لحظة ذهابي إلى التربية والتعليم، لأقدم طلب وظيفة معلم،

جانب من مشاركة المعلم باسم سعدي في فعاليات إحياء يوم الأرض في منتدى المعلمين في نعلين.

فوجئت برفضهم طلبي، لأني كنت لا أحمل الهوية الفلسطينية، والسبب أن أبي قد فقدها عند نزوحه إلى الأردن.

وبعد المعاناة الطويلة التي تجاوزت عدة أشهر وأنا أتنقل من مكتب إلى آخر، بدأت طاقتي تنفد، إلى أن جاء الفرج. قلت في نفسي، سأتوجه إلى وزير التربية والتعليم مباشرة أشكو همي وظرفي له، وبالفعل نجح الأمر، وقام بالاتصال الفوري بمديرية التربية، وفي الصباح وجدتهم ينتظروني، وقاموا بتسجيلي على الفور، لأتقدم لامتحان التوظيف ولذي حصلت فيه على ترتيب الأول، لأنال الوظيفة، ومن هنا بدأت التدريس.

دخلت المدرسة لأجد مديرها الكهل على مقعده وهو يناظرني ويكلمني كأني في غرفة التحقيق، وبدأ بجمع الكتب وبرنامج الحصص الذي باشرت بشغف في تنفيذه، والذي طالما كنت أحلم به وكنت أقدم اكثر ما أستطيع في استخدام ما كنت أعتزم فعله في استخدام الوسائل الحديثة، التي عملت على بنائها طول الفترة السابقة. وكوني حاصل على دبلوم عال في الإرشاد التربوي، وجغرافيا وعلوم سياسية، وحالياً ماجستير جغرافيا، عوضاً عن الدورات في علم النفس التربوي، فإن هذا كله لم يكن له أهمية لدى مدير المدرسة، فكل حصة كان يدخل وينتقد ويرفض كل ما أقوم به، على الرغم من حصولي على احترام الطلاب جميعهم، ومفاضلتهم لي، لأني كنت المتنفس الوحيد الذي يفرغون فيه كبتهم، والظلم الذي يقع عليهم، حيث كانت المدرسة تعاني الكثير من الكراهية بين الطلاب ومعلميهم والإدارة، فوجدت نفسي أقف على الخط الفاصل بين المعركة، الطلاب من جهة، والمعلمون من جهة أخرى. في الاجتماعات الدورية للمعلمين، كنت أطلب وأنصح بعمل خطط علاجية، لكنها غالباً ما تلاقي الرفض من قبل المعلمين، وجملتهم المشهورة «إنهم لا يستحقون!».

لماذا؟ هل فعلاً لا يستحقون، هذا السؤال راودني في بدايتها إلى أن اكتشفت أن المعلم لا يريد أن يُتعب نفسه، ويدخل الحصة ليعطي الدرس فقط، وهل فهم الطالب أم لم يفهم ليست مشكلته، بل الطالب هو المسؤول فقط، ولا ينظر المعلم إلى نفسه، بل يسقط السبب على غيره.

في نهاية العام، بعدما انتابني الكثير من الإحباط والتعب من هذه المعركة، أقدمت على طلب انتقال إلى مدرسة أخرى، وها أنا في مدرستين، كانت المسافة بعيدة جداً لأصلهما، ولكن قلت في نفسي لن يشكل البعد مشكلة أمام الرسالة التي أنوي تقديمها، ولكني كنت على خطأ، لأن الجهد الذي أبذله تضاعف، فقد كنت معلماً لثمانمائة طالب، ينقسمون إلى مدرستين، وكنت أعلم مواد متنوعة، لأني لم أكن أعلم أن معلم الجغرافيا في مدارسنا يجب أن يعلم مواد التربية المدنية، والتربية الوطنية، والتاريخ، والجغرافيا، والقضايا المعاصرة، والإدارة، والاقتصاد، كلها موزعة على 25 حصة، لأكون معلماً لـ 18 مادة مقسمة على المدرستين، كيف لي أن أبدع وأن أحقق هدفي؟ كيف لي أن أبقى على قيد الحياة؟ ... ليس هذا فحسب، فكل صباح أصل المدرسة لأجد المعلمين القدماء يشكون ويبكون وينتقدون، وينصحونني بترك التعليم والبحث عن وظيفة أخرى، أصبحوا يهدمون البيت الذي بنيته حجراً حجراً، إلى أن دمروا كل الطموح والأمل الذي كنت أتطلع إلى تحقيقه، ويأتي المشرف التربوي ينتقدك، ويظهر الأشياء السلبية فيك، دون أن يعزز فيك الجوانب الإيجابية، والتربية والتعليم لا تعير اهتماماً، ومديرك الكهل ينظر إلى نفسه كيف كان، ويريدك أن تكون وريثه الشرعي في أسلوبه القديم، وما زلت في حيرة وتعب بين الماضي والحاضر، كيف لي أن أغير عقولاً قديمة أكل عليها الدهر وشرب، أم يجب أن أصبح مثلهم غير مُبالٍ، أقدم المطلوب مني بالعصا، لا أن أنزل إلى مستوى الطالب، وأكون المعلم المتواضع الذي إذا أحبك الطالب أحب المدرسة واحترمها طوال حياته، ... وهذا هو الماضي.

مدرسة ذكور بدرس الثانوية

جانب من مشاركة المعلم باسم سعدي في نشاط الفنون في التعليم مع الطلبة في نعلين.